مع عبدالله بلخير في سيرته وإبداعه

بقلم
د. محمد بن عبدالرحمن الربيع*

عبدالله بلخير ، عملاق من العمالقة الذين أنجبتهم جزيرة العرب.
مبدع في جوانب مختلفة.

في الشعر بلغ القمة بمطولاته وملاحمه، بعاطفته العربية الإسلامية التي تنبض بالاعتزاز بأمجاد الأمة وبطولاتها.

وهو مع ذلك شاعر العاطفة المتألقة والشعور المرهف والإحساس بالجمال.

وهو رجل الدولة القدير شارك في كثير من الأحداث وكان شاهدا عليها مدونا لها من خلال عمله في الدواوين الملكية وأجهزة الإعلام.

وهو مترجم قدير دقيق يترجم بأمانة ما يدور بين الملك عبدالعزيز رحمه الله وزعماء العالم مع كتمان للسر ومحافظة على ما استؤمن عليه من معلومات.

وهو من كتاب النثر المبدعين يتضح ذلك من سيرته الذاتية ومن مذكراته والمقابلات التي أجريت معه.

وهو ناقد متذوق ومؤلف رائد مع زميله محمد سعيد عبد المقصود في كتاب (وحي الصحراء).

كان ملء السمع والبصر.

ثم انسحب من الساحة وتفرغ للتأمل والرحلات وكتابة الشعر، ولم يعد له حضور إلا من خلال بعض المقابلات أو ما ينشر عنه وعن شعره من دراسات.

وعندما توفي وانتقل إلى دار الخلود تذكرناه من جديد واهتمت الصحف - في صحوة مؤقتة - به ونشرت عنه المقالات التي يغلب عليها طابع العموم وكلمات الرثاء.

ثم هدأت العاصفة.

إننا مع الأسف أمة لا نعنى بالمبدع إلا عندما يموت ثم نقول ونتحدث ونقترح أمورا تموت بدورها سريعا.

وهكذا فورة حماسة تنطفئ، ونعود إلى النسيان .

* وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للدراسات العليا والبحث العلمي، ورئيس النادي الأدبي بالرياض.

الاتجاه الإسلامي في شعره

يبدو الاتجاه الإسلامي واضحا جليا في شعره من خلال مجموعة من الظواهر والمكونات والمؤثرات فهو شاعر (العروبة والإسلام) شاعر تربى في مهبط الوحي (مكة المكرمة)، وعمل في ظل ملك عظيم همه الأكبر هو خدمة الإسلام والمسلمين (الملك عبدالعزيز)، وينتمي إلى مهبط الوحي وطن يعتز بالإسلام دينا ومنهج حياة، وتربى على مبادئ سامية وأخلاق رفيعة.

ثم هو شاعر عالم مثقف قرأ التاريخ الإسلامي بعمق ومحبة واتخذه ميدانا (للاعتبار) فأمجاده وانتصاراته دافع للرقي والتقدم، ومآسيه ونكباته ميدان للاعتبار والحذر من المصير المؤلم.

وهكذا نجد أن كل المكونات الثقافية تصب في اتجاه واحد يخدم الفكرة ويجعلها مسيطرة على وجدانه وشعوره.

وقد تجلى (الاتجاه الإسلامي في شعره) في جوانب كثيرة منها:

- الاعتزاز بالإسلام دينا ومنهج حياة.
- الافتخار بأمجاد المسلمين وبطولاتهم.
- اتخاذ النماذج الإسلامية الخالدة والشخصيات المؤثرة في التاريخ الإسلامي قدوة حسنة ومصدرا للاعتزاز، ودعوة الشباب إلى الاقتداء بها واتخاذها مثلا أعلى في العمل والسلوك.
- استنباط المواعظ والعبر مما حل بالمسلمين من نكبات، والتوظيف الإيجابي للمآسي في مجال العبرة والحذر من نفس المصير.
- ولا انفصام بين اعتزازه بـ (العروبة) وانتمائه إلى (الإسلام) إذ لا تناقض في ذلك كما هو المفهوم الصحيح للعلاقة التي لا تنفصم عراها بين العروبة والإسلام، وهذا ما يؤمن به أبناء الجزيرة العربية بصفة خاصة وكل المخلصين من أبناء العروبة والإسلام.

وتتضح هذه المفاهيم بشكل واضح في التحليل الموضوعي للمفاهيم والمضامين الفكرية لشعر عبدالله بلخير.

- وفكرة (العروبة) و (الإسلام) هي لحمة شعره وسداه ليس في القصائد ذات العنوانات أو المناسبات أو الأحداث الإسلامية فقط بل في شعره كله وهنا تبرز عبقريته ومكانة فكره واتجاهه وانعكاس منهجه وتوجهه السليم على مجمل شعره. وهو هنا يختلف مثلا عن (أحمد شوقي) الذي لشعره وجهان مختلفان فعندما نقرأ (إسلاميات شوقي) ثم نقرأ (خمريات شوقي) نجد أنفسنا وكأننا أمام شاعرين مختلفين في الفكر والاتجاه، أمام شاعر مزدوج الشخصية، أو أمام شاعر مر في حياته بتحولات فكرية حادة. أما عبدالله بلخير فشعره في أطوار حياته وفي كل موضوعاته يسير وفق منهج فكري واحد لا تناقض فيه ولا تصادم.

اهتمامه بالأندلس

واهتم عبدالله بلخير بالأندلس تاريخا وموطنا، فكتب ما يمكن أن نطلق عليه (أندلسيات بلخير) في مقابل (أندلسيات شوقي) بل أعتقد أن موازنة أدبية بين أندلسيات الشاعرين ستكشف لنا عن جوانب من عبقرية عبدالله بلخير وشديد إحساسه بعظمة المسلمين في الأندلس وما ولده ضياع (الفردوس المفقود) من أسى ومرارة، وستكشف جوانب تفوق فيها بلخير على شوقي.

والأمر يحتاج إلى جمع تلك القصائد الطوال في ديوان واحد يشمل ملحمة (طارق بن زياد) و (ملحمة قرطبة) و (ملحمة غرناطة وقصر الحمراء) وغيرها من الأندلسيات التي جادت بها عبقرية هذا الشاعر الفذ الذي يمثل نموذجا راقيا من عناية شعراء (السعودية) بالأندلس واستلهامهم من ذلك التاريخ المجيد الذي أصبح أثرا بعد عين ولم يبق منه إلاّ الذكريات والعبر.

الأديب الرحالة

وجانب آخر مهم من حياة عبدالله بالخير وإبداعه الشعري والنثري وهو (أدب الرحلات) الذي أبدع فيه شعرا ونثرا.

كما هو معروف للجميع فإن (أدب الرحلات) باب واسع مهم من أبواب الأدب والتاريخ والمعلومات في تراثنا القديم والحديث.

وإذا كتب (الرحلة) أديب وشاعر وصاحب ذاكرة قوية تختزن الأحداث وتتأملها وتحللها وتستنبط منها العبرة وتستحضرها لتفسر الأحداث المعاصرة، فإننا سنكون أمام (نثر) و (شعر) يستحق الدراسة والتحليل،

ولعلنا نجد من الباحثين من يتحفنا بدراسة معمقة عن (أدب الرحلة عند عبدالله بلخير) من خلال شعره ونثره.

شاهد على عصره

وعبدالله بلخير شاهد على عصره ،عاش أحداثه وأسهم في صنعها وتكييفها، وهذه المشاركة الفاعلة المؤثرة جعلت مجال (الذكريات) و(المذكرات) و(الشواهد والمشاهد) تشكل جانبا مهما من تكوينه الثقافي انعكس بشكل واضح جلي فيما كتبه أو أملاه من (مذكراته) أو (سيرته الذاتية)، ولذلك نقرأ في كتاب (عبدالله بلخير يتذكر) زخما هائلا من المعلومات والتحليلات لأحداث العصر التي شهدها وشارك في صنعها، ونخرج من تلك المذكرات بتصور واضح لعقلية الرجل وثقافته، وقدرته على استيعاب الأحداث الماضية واستحضارها في ذهنه الوقاد بكل تفاصيلها وجزئياتها الدقيقة، مع قدرة واضحة على الوصف والتحليل للأحداث والشخصيات والمشاهد والمواقف، وشواهد ذلك مبثوثة في كتاب (عبدالله بلخير يتذكر) الذي يجد فيه القارئ الإمتاع والفائدة.

وربما يكون (بلخير) قد كتب فصولا من (مذكراته) أو (سيرته الذاتية) أو شهادته على عصره، ونحن في انتظار نشر ذلك لتكتمل الصورة، وربما عثرنا على سيرة ذاتية متميزة تضاف إلى ما تحدث عنه وحلله الدكتور عبدالله الحيدري في كتابه (السيرة الذاتية في الأدب السعودي)، وغيره ممن كتب عن هذا الجانب المهم في أدبنا السعود المعاصر.

بلخير الإعلامي

أما عبدالله بلخير الإعلامي الكبير والمؤسس والمخطط لكثير من الأمور الإعلامية في مجالي (الصحافة) و (الإذاعة)، فذلك مجال آخر للكتابة والتأليف، فأتركه للإعلاميين المتخصصين الذين يؤرخون لمؤسسات الإعلام في بلادنا ولرجال الإعلام المؤثرين وهو مجال يتسع فيه القول ويتشعب، وحسبه أنه كان أول وزير دولة للإعلام في المملكة العربية السعودية.

وحي الصحراء

وجانب آخر مهم في نشاط عبدالله بلخير الأدبي وهو تأليفه مع زميله محمد سعيد عبدالمقصود كتاب (وحي الصحراء) عام ١٣٥٥هـ، وهو كتاب رائد ومهم في التعريف المبكر بالأدب المحلي ونشر نماذج منه، ولهما فضل الريادة في هذا الميدان.

ومعروف أن هذا النوع من الكتب لا تأتي قيمته الأدبية والنقدية من دقة التأليف وشموليته، ولا منهجية النقد ومدارسه، وإنما تأتي من ارتياد الطريق المجهول والبناء على غير مثال، وفتح آفاق جديدة لمن يأتي بعده ويسير على منواله .

وهكذا كان كتاب (وحي الصحراء) خير سفير في وقته للتعريف بأدبنا المحلي، فتلقفته الأيدي حتى نفدت الطبعة الأولى بسرعة، وأصبح كتابا نادرا يبحث عنه الناس بإلحاف، حتى قامت مؤسسة تهامة مشكورة بإعادة طبعه على صورته الأصلية عام ١٤٠٣هـ.

وقبل الختام أود أن أقترح بعض الأمور التي تأتي من باب الوفاء للراحل العظيم اعترافا بفضله ومكانته الأدبية والثقافية ومن ذلك:

- جمع تراثه من كتب ودوريات وملفات ووثائق مهمة جدا في مركز ثقافي لينتفع به، وأقترح أن يضم ذلك التراث إلى (دارة الملك عبدالعزيز) المعنية بكل ما له صلة بتاريخ المملكة بمفهومه الواسع.
- إصدار الأعمال الكاملة له والمتمثلة في ديوانه الضخم وفيما كتبه من مقالات وما تم معه من مقابلات وتحقيقات صحفية.
- توجيه بعض طلاب الدراسات العليا وتشجيعهم على تقديم رسائل عنه، وأعتقد أن شعره يستحق أن يسجل عنه رسالة دكتوراه في إحدى جامعاتنا.
- إقامة ندوة علمية عن تراثه في أحد الأندية الأدبية في المملكة.
- وإذا كان لدى أسرته الاستعداد لإحداث مسابقة أدبية باسمه والإنفاق عليها فسيكون ذلك نافعا. ■